لئلّا يلج معه في الوطن الحشرات الضارّة. وهذا ممّا يتحتّم خصوصاً على الدواوين والجارك وفقاً للقوانين التي لم يرعها غالباً عمّال الاتراك في عهدهم بفعل الرشوة

وآخراً يُستفاد من هذا الدرس ان العدوّ الذليل الحقير ربّما أتى بالأذى الكبير فلا يحسن بالانسان ان يستخفّ به. فكم حقير ذلّل جبّاراً. وكم تغلب البعوضة الصغيرة رئيس السباع بابرتها كما قال الشاعر:

لاتحقرنّ عدوّاً في مخاصمة ولو يكونُ ضعيفَ البَطْش واليَدِ
فالبَعوضة في الجُرح المديد يدٌ تنالُ ما قصَرَتْ عنهُ يدُ الأسدِ

النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل العاشر: الفنون الجميلة بين نصارى العرب (تابع)

٤ فنّ الموسيقي والغناء

الموسيقي من اجلّ الفنون الجميلة غايتها تأليف الالحان وتناسب النغمات وتنظيم الاوزان المحرّكة للنفس تحريكاً ملذّاً. فمنها الموسيقي الطبيعيّة لتلحين الاصوات البشريّة والآليّة المتّخذة من آلات الطرب كالعود والارغن. وكلتاهما امّا دينيّة لتمجيد الله وتحريك القلوب على خدمته وامّا مدنيّة ليسلو بها الانسان عن اشجانه وتطرب بنغماتها الصدور وتتشنّف بالحانها الآذان فتهيج في سامعيها مختلف العواطف اللينة او الشديدة المحزنة او المبهجة على حسب ايقاعها. ولذلك قال بعضهم انّ الغناء غذاء الارواح كما انّ الشراب غذاء الاشباح

ولم يكن العرب ليجهلوا هذا الفنّ وبعض اصوله في الجاهليّة كما يؤخذ من

روايات شتّى اثبتها ابو الفرج الاصفهاني في كتابه الشهير بالأغاني وربما دلّ على بعض اوزانه ونغماته بمفردات كان اصطلح عليها قدماء المغنين فكشف بعض المحدثين شيئاً من اسرارها (١

هذا في غناء اهل الحضر اما عرب البادية فلم يعرفوا الّا القليل من هذا الفنّ كالحداء لسَوق ابلهم وكالبسيط من التلاحين يسمّونها بالترنّم والتهليل والسناد والهزج. قال ابن خلدون في المقدّمة (٢: ٣٥٩ من طبعة باريس): «وهذا كلّه من اوائل التلاحين لا يبعد ان تتغطّن له الطباع من غير تعليم شأن البسائط كلّها من الصنائع ولم يزل هذا شأن العرب في بدواتهم وجاهليّتهم»

ولا نشكّ انّ نصارى العرب في الجاهليّة احرزوا لهم فخراً في هذا الفنّ كما اصابوه بالفنون الجميلة السابق ذكرها وذلك في قسمَي الموسيقى الدينيّة والدنيويّة معاً

فالموسيقى الدينيّة اثبتنا في ما سبق لنا من الكلام كم كان لنصارى العرب من كنائس واديار وصوامع ومقامات دينيّة شتّى في كلّ انحاء الجزيرة في شمالها وجنوبها واواسطها. تقام فيها الحفلات الدينيّة. ومن المعلوم انّ الرتب النصرانيّة تباشر غالباً بالغناء والترتيل سواء أُنشدت التسابيح التقويّة او تُليت المزامير والصلوات الفرضيّة وذلك منذ اوائل النصرانيّة كما ورد في رسائل القديس بولس حيث قال لاهل افسس (٥: ١٨-١٩): «امتلئوا من الروح متحاورين فيما بينكم بمزامير وتسابيح واغانيّ روحيّة ومرتّلين ومرنّمين في قلوبكم للرب». ومثلهُ قولهُ لاهل كولسي (٣: ١٦)

وقد ورد في كتب العرب انّ الرهبان كانوا اذا خافوا الملالة والفتور على ابدانهم ترنّموا بالالحان واستراحت اليه انفسهم. وقال الابشيهيّ في المستطرف في كلّ فنّ مستظرف (٢: ١٧٧): «لاهل الرهبانيّة نغمات والحان شجيّة يمجّدون الله تعالى فيها ويبكون على خطاياهم ويتذكّرون نعيم الآخرة» وقد قيل في مغنٍّ منهم (ياقوت ٢: ١٩١)

١) اطلب مقالات حضرة الاب كرلنجت عن الموسيقى العربيّة في المجلّة الاسيويّة الفرنساويّة Journal Asiatique, 1902

اذا رجّع الانجيل واهتزّ عائدًا تذكّر محزونٌ وحنّ غريبُ
وهاج بقلبي عند ترجيع صوته بلابلُ اسقامٍ به ووجيبُ

وقيل في غيرهم (٢ : ٦٩٥) :

اني طربتُ لرهبان بجاوبهم بالقدس بعد مدوّ الليل رُهبانا

وفي الشعر الجاهلي الفاظ اطلقوها على غناء القسوس والرهبان. فيقولون «هيّنم القسّ» اذا تنغّم بخفوت الصوت. قال ابن بن خُريم يشير الى تقديس الكأس عند النصارى (الاغاني ١٦ : ٤٥) :

ولم يشهد القسّ المهيّنم ناقوسها طروقًا ولا صلّى على طبخها خَبرْ

ومثلهُ «زمزم» اي طرّب في صوته خفيًا. قال الاعشى في المعنى (شعراء النصرانيّة ص ٣٧٨) :

لها حارسٌ لا يبرحُ الدهرَ بيتها وإن ذُبحت صلّى عليها وزمزما

واذا رفع صوتهُ بالدعاء قالوا «سبّح» وانشدوا :

وما سبّحَ الرهبانُ في كلّ بيعةٍ ايلُ الاياليْن المسيحُ بن مريما

واذا تغنّى القسّ بقراءته قيل شمعل. واذا اطلق صوتهُ بالدعاء قيل جأر. قال ربيعة بن مقروم في وصفه راهباً (الاغاني ١٩ : ٩٢)

جنّار ساعات النهار لربّه حتّى تجدّد لحمهُ المتشمّلِ

(قال) المتشمّل المتغني في تلاوة الزبور. وقال عديّ بن زيد النصرانيّ يقسم برئيس دينه :

انّي واشٍ فاقبل حلفتي بأيلٍ كلّما صلّى جأرْ

وقولهم «رجّع الانجيل» اذا ردّد نغماته في حلقه. وقد مرّ. ومثلهُ التلحين في قراءة الانجيل. وجاء في الحديث (ارشاد الانام للشيخ علي سالم ص ١٩ وفي الجامع الاصغر) : «اياكم ولحون اهل الكتابين. اي التوراة والانجيل وهم اليهود والنصارى فانهم كانوا يُراعون حُسن الصوت ولا يلتفتون الى تدبّر المعنى» (كذا). فمن هذا كلّه ترى ما كان من المقام السنيّ للغناء الديني بين نصارى العرب

ولمّا ظهر الاسلام وشاع القرآن بين اهله اخذوا قراءتهُ وتلحينهُ من قراءة

وتلحين نصارى العرب. روى الفاكهي في كتاب اخبار امّ القرى (ص٩) عن عائشة قالت: سمع النبي صلعم قراءة ابي موسى الاشعريّ فقال: لقد أوتي هذا من مزامير داود. وجاء في الحديث في الجامع الاصغر (اطلب ارشاد الانام للشيخ عليّ سالم ص ١٧و١٨): «سيجيء بعدي قوم يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانيّة والنَّوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم يقارب من يعجبهم شأنهم». وروى ايضاً في الحديث: «اقرأوا القرآن بلحون العرب واياكم لحون اهل الكتابين»

﴿ الموسيقى المدنيّة ﴾ راجت في الجاهليّة في دور الملوك من تبابعة وغسانة ومناذرة. وقد عرف القرّاء من فصولنا السابقة نفوذ النصرانيّة بين هؤلاء الملوك الذين تقلّدوا في افراحهم عادات الشعوب المجاورة لهم لا سيّما اليونان والفرس والروم والدليل على ذلك ما قالـه المسعودي في مروج الذهب (٨ : ٩٩): «انّ العودَ عند اكثر الامم رُجلَ الحكماء يونانيٌّ صنعهُ اصحاب الهندسة على هيئة طبائع الانسان». ثمّ انّ كثيراً من الالفاظ الدالّة على ادوات الغناء دخيلة فممّا استعاروهُ من الروم الارغـن (ὄργανον) والبَربط (πανδοῦρα) والسَّنطور (σαντούριον) والقانون (κανών) والقيثار (κιθάρα) وكانوا يأتون بالقيان الروميّات وغيرهنّ كما روى حسّان بن ثابت في وصفه لبعض الحفلات التي احتفل بها ملك غسّان جبلة بن الايهم قال (اغاني١٦ : ١٥): «لقد رأيت عشر قيان خمس روميات يغنّين بالروميّة بالبرابط وخمس يغنّين غناء اهل الحيرة» اهداهنّ اليه اياس بن قبيصة

ومنهُ يتّضح انّ الغناء والادوات الموسيقيّة استعارها العرب من الامم المجاورة لا سيّما النصرانيّة. امّا اهل البادية فبقي هذا الفنّ بينهم في بساطته على موجب معرفتهم الفطريّة. وقد شهد على ذلك ابو الفرج في كتابه الاغاني قال يذكر عمر بن الخطّاب اوّل الخلفاء الراشدين ومقتداً قول ابن خرداذبه (٨ : ١٣٩):

«ولا كان الغناء العربي ايضاً عُرف في زمانه الاّ ما كانت العرب تستعملهُ من النَّصب والحداء وذلك جارٍ مجرى الإنشاد الا انهُ يقع بتطريب وترجيع يسير ورَفع للصوت ... واوّل من دُوّنت لهُ صنعته منهم (اي من المغاني) عمر بن عبد العزيز فانهُ ذُكر عنهُ انهُ صنع في ايّام امارته على الحجاز سبعة الحان ... ومن النـاس من ينكر ان تكون لعمر بن عبد العزيز هذه الصنعة ... ولم يوجد في وقت من الاوقات ولا حالٍ من الحالات اشتهر بالغناء ولا عُرف بهِ ولا بمباشرة اهلهِ ... وخالفوهم قد ايّدتهم اخبارٌ رويت»

وفي ايّام بني اميّة اشتهر اوّل المغنّين من العرب وهم : ابو يحيى عبيد الله بن سريج المتوفّى بالجذام في زمن هشام بن عبد الملك . ثمّ ابو الخطّاب مسلم بن محرز وكان اصلهُ من الفرس . ثم سعيد بن وهب كان ابوه اسود وكان هو خلاسيًّا مات في ايّام الوليد بن يزيد في دمشق . ثمّ الغريض واسمهُ ابو يزيد وقيل ابو مروان عبد الملك . وابو الوليد مالك بن ابي السمح . وسبقهم ابو عثمان سعيد بن مُسجح وكان في ايّام معاوية .

ولا شكّ انّ نصارى العراق والروم مع اهل فارس هم الذين علّموا هؤلاء فنّ الغناء . قال ابو الفرج في كتاب الاغاني (ص ٣ : ٨٤) وقولهُ حجّة في هذا الباب في ترجمة ابن مُسجح انهُ :

« مكّي اسود مولىً متقدم من فحول المغنّين واكابرهم واوّل من صنع الغناء منهم ونقل غناء الفرس الى غناء العرب ثمّ رحل الى الشام واخذ الحان الروم والبربطيّة والاسطوخوسيّة (اي تنظيم الاوزان (σύστημα)) وانقلب الى فارس فاخذ بها غناء كثيرًا وتعلّم الضرب . ثمّ قدم الى الحجاز وقد اخذ محاسن تلك النغم وألقى منها ما استقبحهُ من النبرات والنغم التي هي موجودة في نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب وغنّى على هذا المذهب فكان اوّل من اثبت ذلك ولحّنهُ وتبعهُ الناس بعد ... وهو الذي علّم ابن سريج والغريض »

وجاء لهُ في محلّ آخر عن الغريض (٢ : ١٤٦) :

« قال هارون بن محمّد الزيّات حدّثني حمّاد بن اسحاق عن ابيهِ انّ الغريض سمع اصوات رهبان بالليل في دير لهم فاستحسنها فقال لهُ مَن معهُ : يا ابا يزيد صُغ على مثل هذا الصوت لحنًا فصاغ مثلهُ في لحنهِ : « يا امّ بكرٍ ... » فاستحسن منهُ »

فترى تأثير غناء النصارى والرهبان في الغناء العربيّ في الاسلام . ولنا ما هو اشهر من ذلك نزيدُ بهِ ترجمة بعض المغنّين من الذين ذكرهم ابو الفرج وغيرهُ من كتبة العرب . فمنهم حُنَيْن الحيري من فحول المغنّين روى ابو الفرج ترجمتهُ (١ في الاغاني (٢ : ١٢٠—١٢٧) وقال هناك انّهُ من العباديين واخوالهُ من بني الحرث ابن كعب النصارى كان في ايّام بني اميّة وهو من اهل الحيرة وكان مغرمًا بالغناء فاتّصل الى أن نبغ فيهِ وفي صناعة العود وكان نسيج وحدهِ في العراق فبلغ خبرهُ المغنّين في الحجاز ابن سريج والغريض ومعبد فكتبوا اليهِ ووجّهوا اليهِ نفقةً

١) اطلب مجلّة الاسيويّة الفرنسويّة (Journ . As. , 1873b , 425-433)

ليشخص اليهم فخرج الى الحجاز ومات في بيت سكينة بنت الحسين بن علي ابي طالب وذلك لأن الناس كانوا ازدحموا على سطح بيتها ليسمعوا غناءهُ فسقط الرواق ومات حنين تحت الردم . وجاء في الفهرست لابن النديم (ص ١٤١) انَّ لاسحاق الموصليّ كتاباً في اخبار حُنَيْن الحيريّ

واشتهر في الغناء في اوائل الاسلام من النصارى غير حنين . منهم عَوْن الحيريّ وكان عباديًّا ايضاً ذكرهُ صاحب الاغاني (٢ : ١٢٥ و١٠ : ١٣٥) . وذكر يوحنا المزمر (٥ : ٣٤ و٤٦ الخ) وذكر غير هؤلاء الحيريين وبه يثبت قولنا انَّ النصرانيَّة في عهد الجاهليَّة واوائل الاسلام فضلاً في اشاعة الغناء والموسيقى العاميَّة والدينيَّة كما اشاعوا بين العرب الغناء والموسيقى الدينيَّة . وكانت طريقتهم في الغناء على النمط القديم المستحسن الى ان اشتهر في ايَّام الرشيد اخوه ابراهيم بن المهديّ الذي قال عنهُ ابو الفرج في الاغاني (٩ : ٣٥) انهُ « هو اوَّل من افسد الغناء القديم وجعل للناس طريقاً الى الجسارة على تغييره » (لهُ بقيَّة)

كيف يقرأ ويكتب العميان ؟

بقلم الاب رفائيل خاله اليسوعيّ

انَّ العمى لمن أعظم العاهات التي تصيب الانسان في هذا وادي الدموع فتنغص عيشهُ حتَّى يعاف الحياة . يا لها من ليلةٍ ليلاء يهيم فيها الضرير آناء الليل واطراف النهار لا يتمتَّع ولو ثانيةً في عمرهِ بلذَّة النور وبهاء الطبيعة وجمال مواليدها المختلفة فكأني بهِ ميتٌ قبل مماتهِ ميتٌ يجول بين الاحياء ويكاد لا يبتدّ شيئاً يُذكر من خيرات الحياة وحظوظها . ولو فرضنا انهُ تعلَّم حرفةً ومارسها لكسب معاشهِ بدون ان يمدّ يدهُ مستعطياً فانَّما ذلك يكمل لهُ حياتهُ الماديَّة . امَّا الحياة العقليَّة التي تفوق الاولى تفوّق الانسان على العجماوات فأنَّى لهُ ان يُغذيها ويُنميها وهو لا يستطيع المطالعة ولا الكتابة وكلتاهما — ولاسيَّما القراءة — اهمُّ والزم الوسائط